تســـامي الأنـــا في شعر أبي الفوارس المعروف بـ(حَيْص بَيْص)

أ.م. ميادة عبد الأمير كريم

جامعة ذي قار / كلية التربية للعلوم الانسانية

altememyabbas@gmail.com

الملخص:

احتلت ظاهرة الأنا حيزاً كبيراً في الدراسات الأدبية ، وكانت مدعاة لاهتمام الباحثين ، فالشاعر _قديماً وحديثاً_ يستحضر الأنا في أبياته ممجدا ذاته ، ويدعوه لذلك عوامل عدة منها : شرف الانتساب ، وعلو الهمة ، وسمو الأخلاق ، الخ ، وشاعرنا أبو الفوارس واحدٌ من أولئك الشعراء الذين برزت الأنا واضحة في أشعارهم ، إذ جسّد في أكثر من موضع أناه الشعرية متسامية ، مترفعة عن الرذائل ، وهو في ذلك يشبه إلى حدٍ كبيرٍ شاعر العرب المتنبي وهو يعتد بنفسه ويفخر بذاته .وقد جاءت هذه الدراسة لاستجلاء أنا الشاعر العباسي أبي الفوارس المعروف بحيص بيص، والوقوف عند أناه المتسامية من خلال ديوانه الشعري، وقد جاءت هيكلة البحث تعريفاً بمفهوم الأنا ثم العرض السريع لسيرة الشاعر بعدها الوقوف عند مفهوم التسامي لنخلص بعد ذلك الى مطالب البحث في الوقوف عند مظاهر التسامي الأنويّ عند شاعرنا .

الكلمات المفتاحية : (أبو الفوارس ، حيص بيص ، تسامي الأنا ، التفاخر) .

The Sublimation of the ego according to Abu_fawares known as Heis Bays .

A.M MAYYADAH ABDUALAMEER KAREEM

College of Education for Humanities, Dhi Qar University،

Abstracts:

The idea of ego occupied large space and space and the researchers were interested in such subiect . in thw past and present time the poet evokes the ego in his verses and glorifies himself and several factors lead him to that such as the honor of affiliation , loftey determination , high morals and others , and the poet Abu _AL_Fawares is one of those poets whose ego emerged in his poem .

He embodied his ego in more than one place K, it is sublimation of vices . perhaps , He is similar to the Arab poet AL_Mutanabbi , who was proud of himself .This study came to clarify the ego of the poet Abu AL _ Fawares , know as Bays and to stand at the being ego being sublimated through the poets poems .

Keywords: (Abu Al-Fawares, Hays Bays, sublimation of the ego, boasting).

مفهوم الـ(أنا) :

لغةً : جاء في لسان العرب : ((أنا لا تثنية له من لفظه إلا بنحنُ ، ويصلح نحنُ في التثنية والجمع ، وهو للمتكلم وحده ، وإنَّما يبنى على الفتح فرقاً بينه وبين أن التي هي حرف ناصب للفعل ، وللعرب في أنا لغات وأجودها أنك إذا وقفت عليها قلتَ : أنا بوزن عَنَا ، وإذا مضيت عليها قُلتَ أن فعلت ذلك ، بوزنِ عن فَعلتُ ، وهناك من يثبت الألف في أنْ فتكون أنا وهناك من قد يوصل بها تاء الخطاب فيصيران كالشيء الواحد من غير أن تكون مضافة إليه ، تقول : أنتَ ، وتكسر للمؤنث ، وأنتم وأنتنَّ)) [١]

أمَّا **اصطلاحاً** : فيراد بها **فلسفياً** النفس المنكرة ، وقد شغل صوفية الإسلام بفكرة (الأنا) في حديثهم عن الغيبة والشهود والفضاء والوجود وذكروها كثيراً في أشعارهم ، وعن طريق الـ(أنا) انتهى ديكارت من الشك إلى اليقين وأثبت وجود الله ثم وجود العالم[٢] ، كما تشير كلمة (أنا) الى ما يهتم به الفرد من أفعال معتادة ينسبها الى نفسه ، فيقول: أنا فعلتُ، وأنا أبصرتُ [٣].

وإذا ما تابعنا اللفظة من منظور **نفسي** نجد أنَّ بنية الجهاز النفسي _كما حددها فرويد_ تحدد في تنظيم ثلاثي جمعته ثلاثة مصطلحات (الهو id ، والأنا ego_ والأنا العليا super_ego) أو ما يعبر عنها بالشعور وما قبل الشعور واللاشعور ويمثل الهو كل ما هو مكبوت ولا شعوري (الغرائز) ، وتتمايز الأنا والأنا العليا من الهو وتشكل الأنا شخصية المرء في أكثر حالاتها اعتدالاً بين الهو والأنا العليا، إذ تقبل بعض التصرفات من هذا وذاك ، وتربطها بقيم المجتمع وقواعده ، في حين تمثل الأنا العليا شخصية المرء في صورتها الأكثر تحفظاً وعقلانية وهي (الأنا المثالي) للفرد ، وعلى هذا فإنَّ الأنا تشكل حالة وسطية بين super ego و id ، أي بين الخير والشر، بين الملائكية والحيوانية ، تتصالح معها وتسعى لأن تكون حرة ، ولكن حريتها مقيدة فلا تطلق العنان

للهو على حساب الأنا العليا أو للأخرى على حساب الأولى فهي بين بين وهي الغالبية العظمى من البشر[٤] .

ويؤدي المجتمع إلى جانب الثقافات المختلفة دوراً بارزاً في تطوير الأنا ونموها [٥] اضافة الى مؤثرات أخرى هي في الواقع كثيرة ، وتختلف من بيئة لأخرى بوجه عام ، ومن شخص لأخر بوجه خاص ، وهذا النمو تارة يكون في الإيجاب وتارة أخرى في السلب ، ونحن نشعر بهذا الأمر على مستوى أنفسنا ، ونلاحظه على الأخرين من حولنا ، فمرة يؤثر فينا المجتمع إيجاباً لنرتقي نحو الأنا العليا / الأنا المثالية ، ومرة أخرى يكون تأثيره بالنقيض من ذلك لنهبط نحو الهو ، وهذا الأمر يعود بطبيعة الحال إلى شخصية كلّ منا ومدى قوتها وسماحها لتحكم المجتمع والمؤثرات الأخرى فيها .

شهاب الدين أبو الفوارس [٦]:

هو سعد بن محمد بن سعد بن الصيفيّ التميميّ الملقب شهاب الدين أبو الفوارس المعروف بحَيْص بَيْص الشاعر المشهور ، وإنَّما قيل له (حَيْص بَيْص) لأنَّه رأى الناس يوماً في حركة مزعجة وأمر شديد فقال : ما للناس في حيص بيص ، فبقي عليه هذا اللقب ، ومعنى هاتين الكلمتين : الشدة والاختلاط .

كان فقيهاً شافعي المذهب ، تفقه بالريّ ، وتكلّم في مسائل الخلاف ، إلا أنَّه غلب عليه الأدب ونظم الشعر ، وأجاد فيه مع جزالة لفظه ، وله رسائل فصيحة بليغة ، أخذ الناس عنه أدباً وفضلاً كثيراً ، وكان من أخبر الناس بأشعار العرب واختلاف لغاتهم ، وكان لا يخاطب أحداً إلا بالكلام العربي ، مرتدياً زي العرب ومتقلداً سيفه على الدوام ، وكان إذا سُئل عن عمره يقول : ((أنا أعيش في الدنيا مجازفة)) لأنَّه كان لا يحفظ مولده ، وهو من ولد اكثم بن صيفيّ التميميّ حكيم العرب .

أمَّا وفاته فكانت سنة (٥٧٤هـ) ببغداد ودُفن في الجانب الغربي في مقابر قريش ، وقد مات ولم يعقب وله ثنتان وثمانون سنة ، وقد ذكره اليافعي في مرآة الجنان قائلاً : ((وكان وافر الأدب ، متضلعاً من اللغة ، بصيراً بالفقه والمناظرة)).

وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على ديوان الشاعر المطبوع في ثلاثة أجزاء بواقع ١٢٩٣ ورقة ، والديوان من تحقيق وشرح السيد جاسم وشاكر هادي ، وقد نشرته وزارة الإعلام في العراق بطبعته الأولى عام ١٩٧٥م .

التسامي الأنويّ في شعر حيص بيص :

التسامي : لغةً مأخوذ من (سَما يَسمو) وهو الارتفاع والعلو ، وسما الشيء يسمو سمواً بمعنى ارتفع ، وتساموا بالسيوف أي تباروا وتفاخروا ، وسما اليه بصري ، اي ارتفع بصرُك اليه [٧].

ويشير التسامي **كمفهوم** لدى الفرد إلى إقباله نحو قيم سامية تتخطى ذاته وتتجاوز مصالحة الشخصية واهتماماته الخاصة إلى شعوره بأنَّه جزء من المجتمع الكبير الذي يعيش فيه ، يؤثر فيه ويتأثر به، كما يرى أنَّ بقائه يكون بقدر نفعه للآخرين [٨].

فالفرد الواعي الذي يسعى اثناء رحلته الوجودية نحو عالم القيم والمُثل ، ينأى عادة بنفسه عن كل ما لا يليق بشأنه بين الغير، مثبتاً أناه الفاعلة داخل الجماعة قولاً وفعلاً ، فهو حريص على بناء نفسه بناءً أمثل من خلال التحلي برفيع الأخلاق، كما انه حريص على تقديم النفع لقومه بحمايتهم والدفاع عنهم وقت النائبات فضلا عن حُسن المشورة، وقد سعى الشعراء عموماً كأفراد ومنهم ابو الفوارس الى ذلك ؛تحقيقاً لذواتهم وتأكيدها من خلال طرقهم لغرض الفخر المنسجم تماماً مع هذه الرغبة الانسانية .

ومن خلال قراءة ديوان الشاعر حيص بيص نلحظ ظاهرة (التسامي) جلية في كل مفصل من مفاصله ، فهو يتفاخر بنسبه الرفيع وجدوده أصحاب المكارم، إلى جانب تفاخره بنفسه كونه رجلا يترفع عن الرذائل ويتعالى عن كل صغيرة من شأنها الحط من قيمته الاجتماعية ، فضلا عن تفاخره بقومه وفضائلهم، جامعاً خلال ذلك بين صفتي (الترفع والتفاخر) ليتشكل التسامي الأنويّ عنده في ثلاثة صور اندرجت في ثلاثة مطالب سنقف عندها ، وهي كالآتي :

١_تفاخر الشاعر بنسبه (وفيه اندمجت فيه أنا الفرد مع أنا الجماعة)

٢ – تفاخر الشاعر بنفسه (وهو تفاخر يمثل الأنا الفردية)

٣– تفاخر الشاعر بقومه (وهو تفاخر يمثل الأنا الجمعية)

المطلب الأول: تفاخر الشاعر بنسبه (الأنا المندمجة)

افتخر حيص بيص كثيراً بنسبه وتباهى بجدوده حتى أننا نجد الصوت الأنوي مدويّاً في أبياته فخراً بذلك النسب المنتهي إلى أكثم بن صيفيّ حكيم العرب ، اذ لا ينفك متفاخراً بهذه المنقبة الرفيعة ،وهو في هذا يمزج بين الأنا الفردية في افتخارها الذاتي وبين الأنا الجمعية في افتخارها القَبَلي ، ليقدم لنا نصوصاً شعرية متألقة ذابت فيها الأنا الفردية وانصهرت في أنا المجموع حتى أصبحتا مفهوماً أنوياً واحداً يخدم رغبته النفسية في اثبات التعالي على من حوله ، متخذا من شرف النسب وسيلة لذلك ، يقول في احدى قصائده [٩]:

سل الهوى عني هل نبت بي عزيمةٌ وحمس الجلادِ جبنتُ المشهدِ

نماني صيفي وسفيان والذي أباح دماً يوم الكلابِ ولم يدِ

و(صيفيّ) في البيت المتقدم والد أكثم الحكيم المشهور ، و(سفيان) ابن مجاشع بن دارم الذي أباح الدم ، ولم يدِ قيس بن عاصم المنقري التميميّ ، وذلك كان يوم الكِلاب الثاني لما أُسر عبد يغوث بن صلاءة الحارثي فأمر بدفعه إلى بني تميم ليُقتَل بسيدهم النعمان بن الحسحاس القتيل ذلك اليوم ،وقد كان هذا اليوم من أكبر وأشد أيام العرب قبل الإسلام وهو مفخرة كبيرة لقبائل بني تميم التي استطاعت صد الحلف اليماني المكون من خمسة قبائل قحطانية كبرى [١٠]، وتسجل انتصارها الذي خلده التاريخ ، فإلى هؤلاء الأشراف ينتهي نسب الشاعر الذي راح متفاخراً بالانتماء اليه .

وقد حرص على تخليد تلك الحادثة والاشادة بها منشدا في موضع آخر من الديوان [١١] :

ألا حبَّذا مسعى تميم بن خنْدفٍ وما شادهُ صيفيُّها ومُجاشعُ

وهُمُ صفوةُ المجد الأثيلِ وفيهُمُ كرائمُ الأيادي والنُّهى والصَّنائعُ

وقال أيضاً :

أنا ابن النواصي بن تميم بن خندفٍ بحيث التقت علياؤها والفواضلُ [١٢]

اذ يستهل الشاعر بيته بالأنا مستعرضاً جانباً فخرياً ملؤه الزهو بأنَّه من أشراف القوم والمتقدمين عليهم ، فإذا ما التقت الأنساب والأحساب كان نسبه أشرف الأنساب وحسبه أرفع الأحساب ، وهذه من الفضائل التي صرح بها كثيراً في قصائده ، إذ كان من عادة العرب الاحتفاء بالنسب الكريم

والتغني به فهو من كرام الناس ، ممَّا شكل ذلك دافعاً لتعزيز الأنا عند الشاعر ووسيلة لإعلاء شأنه ، وهذا مما جُبلت عليه النفس الانسانية من حب التعالي على الأقران ، وقد كان شعرنا العربي القديم حافلاً بالفخر بالنسب وكثيراً ما ازدانت به قصائد الشعراء ، وقد سار ابو الفوارس على هذا النهج من الشعر الغنائي ،ولم يخرج عن نَسقه فجاء شعره ممتلئا فخرا وتمجيدا بالأجداد أمثال صيفيّ وتميم ،واستطاعت الأنا المعتزة أن تثبت وجودها في نصوصه الشعرية وتدخل في حيز الاعجاب من قبل متلقيها.

المطلب الثاني: تفاخر الشاعر بنفسه (الأنا الفردية)

يعلو صوت الأنا الفردية في قصائد حيص بيص مفتخراً بنفسه مرتقيا أعلى الدرجات في سلم التسامي وهو يرى في نفسه شخصاً متفرداً لا نظير له :

أميس تيهاً على الأحياء كلّهمُ علماً بأن نظيري غيرُ موجود (١٣)

انّ هذا التفرّد وانقطاع النظير _ من وجهة نظر الشاعر _ متأتٍ من جملة خصال يتمتع بها أبرزها امتلاكه أداتي السيف والقول، فقوة السيف مكملة لقوة القول، واجتماعهما معاً في شخص واحد يَمُدَانه قوة لا تقهر، من شأنها تأكيد الثقة بالنفس ،فهو الشجاع الجريء الذي لا يهاب الفرسان ولا تزعزعه المواقف ، وهو أيضاً الشاعر الذي إذا نطق انصت من حوله مستمعين له ، وهذا ما كان سبباً في تكاثر حساده وتربصهم لهفوة تمنّوا لو تُصدر منه فيعيبوها عليه، يقول (١٤):

أنا المرءُ لا قولُ الأعادي بمزعجٍ أناتي ولا الليثُ الهصور بآكلي

جريٌّ على حربِ الملوكِ مشمرٌ إذا زلَّ قولٌ بالألدِّ المُجـــادلِ

لساني وسيفي مغمدانِ فإن أُهَجْ أسلتُ الشعاب من دمٍ ودلائــلِ

تكاثر حُسادي، وفضلي ناصري فكيف إذا ما راح سيفي كافلي

يودون لو يهفو بي القولُ هفوةً و تلك طريقٌ ظلَّلتْ كل فاضــلِ

وقد تردد هذا المعنى في الفخر الذاتي في أكثر من موضع ، فهو المقدّم على غيره ؛ شجاعٌ ساعة الحرب ، منطيق ساعة القول [١٥]:

أنا الرجل المقرُّ بفخر فضلي وهمَّتي الأصادقُ والأعادِي

وقد رفعتني الكُبراءُ قِدْماً وأوطئْتُ المفارقَ والهَوادِي

فإن حربٌ فعمروٌ في زُبيدٍ وإنْ نُطْقٌ فقـسٌّ في إيـــادِ

يتضح تسامي الأنا عند الشاعر من خلال افتخاره بنفسه فهو الرجل الذي أقر بفضله الأعادي والأصادق ، وقد اتخذ قصداً من اسماء لشخصيات عربية مشهورة وسيلة لعقد المشابهة بينه وبينها ، إذ شبّه نفسه في الحرب بعمرو بن معدي كرب الزبيدي الفارس الشاعر المخضرم ، وفي الحكمة ورصانة القول بقسّ بن ساعدة الأيادي خطيب العرب ، وما ذلك إلا دلالة على عظم شأنه وعلو أنّاه فهو يشابه شخصيات لها قيمتها و حضورها عند العرب.

ومن المواضع التي تكرر فيها هذا المعنى قوله:

فضلي وبأسي في المقال وفي الوغى خُلقاً لصهوة سابحٍ أو مِنْبر [١٦]

وقال أيضاً معززاً ذلك في قصيدة أخرى :

أنا فارسٌ اليومين يوم مقالةٍ ووغى أصولُ بصارمي وبمقولي [١٧]

والشاعر على شجاعته في أرض المعركة ، إلا أنَّ مقاله أحياناً أقوى حداً من السيف :

تجري المكارمُ والداء متى أفُهْ بالشعر ثُمَّ تغيض أنْ لم أشْعُرِ [١٨]

كما نستمع إليه قائلاً:

وأشهرُ قولي قبل سيفي وأنني بحدَّيْهما عند الكريهةِ قاطعُ [١٩]

ونفسه ممتلئة ثقة و زهواً بأنَّ مقاله سيخلد على مرّ العصور:

فخذْ من مقالي ما استطعتَ فأنَّه سيخلدُ والقولُ الهجينُ يزولُ (٢٠)

ويزداد الحضور الأنوي وتتصاعد نبرته عند حيص بيص ، حين يرى في نفسه أنَّه أمير تميم الذي عطّر الدهر أريج فضائله ، فحقّ لتميم الفخر به:

تأرَّج عُرضُ الدهر من نشر منطقي وسَرَّ تَميماً أنَّ سَعْداً أميرُها (٢١)

أضف إلى ذلك أنَّه صاحب المشورة بينهم وموضع ثقتهم:

على ثقةٍ أني المُشارُ وأنني بديع المعاني الرائقات غريبها (٢٢)

فبقدر عالٍ من الثقة يقدم الشاعر نفسه بأنه حكيم قومه وصاحب المشورة فيهم لكل نازلة تلمّ بهم إذ لا يصدر عنه إلا الرأي الصائب والمعنى الرائق البعيد عن كل ما هو مبتذل ومهين .

و في الواقع ان شعر أبي الفوارس زاخر بالترفع عن الرذائل حتى أنَّ القارئ لديوانه يلمس في شخصه مثالاً للإنسان الفاضل المتسامي بخلقه المُتحلي بكل مكرمة ، فلا تفوته فضيلة إلا وسعى إليها وتفاخر باتصافه بها حيث يقرن الأفعال بالصفات التي يدّعيها فتسري في نفسك أشعاره وهي تلامس الوجدان وتحرك المشاعر، ومن المواضع التي تجسّد فيها ترفّع الشاعر وإكباره لذاته ما نقرأه في قوله (٢٣):

أنا والزِّنادُ ببَرْدِهِ وتَصَبُّري سِيَّانِ في الإِخْفاءِ والكِتْمانِ

لكنَّهُ بالقَدْحِ تَظْهَرُ نــارُهُ وسَرائري أعْيَتْ على الإِخْوانِ

يحلق حيص بيص في فضاء التسامي الأنوي اللامتناهي مفتخراً بنفسه رجلاً صبوراً ،كتوماً لا يظهر ضَيمه للعلن ولا يفصح عن سرائره ، فهو كالزناد الذي تُقدح به النار سيّان إلا أنَّه لا يظهر ما به كما يفعل الزناد ، بل أنَّ أناه المترفعة تأبى التشكي للغير وتفضّل الكتمان ، وقد وظّف الشاعر لذلك فن التشبيه مع حذف الأداة ليقوّي المعنى المطروح في النص وليزيد من بلاغته .

وسمة التواضع للأصدقاء والسعي إليهم مقابل النأي عن ذلك مع ذوي السلطان هي واحدة من شيم حيص بيص التي عززت هي الأخرى _إلى جانب ما تقدم_ أناه الشعرية وزادتها سمواً على الغير[٢٤] :

وأمشي إلى الخلان سعياً ولا أرى تُحملّني نحو الملوكِ الصواهلِ
وأنَّي لسمحٌ في السلام لأشعث وعند المطاع القيل بالردِّ باخــلِ

ويأتي الوفاء وصِدْق المشاعر كاشفاً عن جانب جديد من شخصية حيص بيص في صورة جميلة للأنا المتفردة فهو لا يستحي أن يبكي أخاً له قد فارقه ،او خِلّاً عزّ عليه لقياه، فالبكاء وذرف الدموع تمنح أناه المتألمة درجة من درجات التسامي :

أنا الباكي إذا فارقتُ خِلَّاً فكيف أخي وخالِصتي وأزْري[٢٥]

وللإباء نصيب في فضائل الشاعر ، اذ يعتز بذلك قائلاً:

أنا المريضُ بأحداثي وسورتها وليس غير إبائي حافظٌ رَمقي [٢٦]

وأنشد أيضاً :

أنا منْ عَلِمْتَ أبِيَّةً وتَرَفُّعاً عن كلِّ جَيْئَةِ مَطْلبٍ وذَهابِ [٢٧]

فشاعرنا إنسان أبيّ لا متكبر ، وهو حين يتفاخر بنفسه ويتغنى بفضائله على المستوى الشخصي ليس خيلاءً وغروراً منه كما قد يتصور القارئ لأول وهلة بل إباء وعزة نفس ، وحيص بيص يعلل ذلك مدافعاً عن نفسه :

وما ذاك عن كبرٍ ولكن أبيّةً تُقاوم كِبْراً عندُهم وتتساجِلُ [٢٨]

ومن كريم أخلاقه أنَّه يترفع عن الهجاء ويتنزّه عنه:

خـزنْـتُ لسـانـي سُؤْدداً ورئاسـةً ولو شئتُ فـاقَ المُرْهفاتِ هجائي[٢٩]

فلو شاء أن يهجو لفاق قوله السيوف المرهفات إلا أنَّ نفسه تأبى ذلك ، طلباً للسمو وبناء مجدٍ له وسؤددٍ ، إذ من العيب _في عُرُفه_ ذكر مخازي الآخرين أو فضح عيوبهم .

ومثلما ترفع عن الهجاء ترفع عن الشتم وبذاءة اللسان:

جادلتهم بلسانٍ غير جارحةٍ والحالُ انطقُ أحياناً من الكلمِ [٣٠]

وإلى جانب ما ذُكر من حميد الصفات التي ساهمت في تشكل التسامي الأنوي لدى الشاعر تصطف صفة (ترك الذل) معها اصطفاف الورود بيد قاطفها في صورة جديدة يتحفنا بها من صور الأنا المتسامية، يقول مشيداً بذلك[٣١] :

لا أرتضي نيلَ الغِنى بمذَلَّةٍ والعِزُّ أكرمُ مَطْمعي وشَرابي

وأرى المَديحَ لغيرِ قَيْلٍ سُبَّةً تبْقى مَعائبُها على الأحْقــابِ

لقد غاص حَيص بَيص في بحر المُكرمات منتقياً اشرف الخصال ليتحلى بها ، وواضحٌ في البيتين المتقدمين انَّ حيص بيص حريص على النأي بنفسه عن المعايب حتى في نظمه الشعر سواء على مستوى اختيار المعنى الشريف أو على مستوى اختيار الألفاظ الحسنة وترك الفاحش منها ، بل حتى على مستوى انتقائه لممدوحيه ، معرضاً عن مَدح من لا يستحق ، وهذا ما أراده بقوله : **(وأرى المَديحَ لغيرِ قَيْلٍ سُبَّةً)** و **(القَيْل)** يراد به المَلك أو ما دونه وسُمي بذلك لأنه اذا قال قولاً نفذ [٣٢]، وهو كناية عن رُقي الممدوح الذي يليق به المدح ، فمديح غير المستحق سيبقى سبةً تلاحق أحقاب الشاعر على مر السنين لذا ترفّع عن ذلك.

ومما لوحظ أيضاً عند الشاعر أنَّه في مدحه للآخر يعتدّ بذاته ويسمو بأخلاقه فتبرز الأنا جلية وكأنه لا يمدح لأجل المدح بل ليفخر بنفسه ويعدد فضائله أمام ممدوحه، فهو ليس اقلّ شأناً من الآخر ،بل هو في مرتبته ،ومن ذلك مديحه للوزير شرف الدين في قصيدة مؤلفة من واحدٍ وستين بيتاً جميعها _سوى البيتين الأخيرين_ جاءت في مدح الوزير ، هي في الفخر بالنفس وتعداد الصفات الكريمة التي يتحلى بها حَيص بَيص من وقار وتسامح، وحكمة وتأنٍ، وعلو الهمة والشجاعة، وشكر المعروف وعدم التنكر لصاحبه ... إلى غير ذلك، إذ نجد أنفسنا أمام قصيدة فخرية بالدرجة الأولى قبل أن تكون قصيدة مدحية قيلت في الوزير ، يقول في أولها [٣٣]:

لقد علمت زوراء دجلة أنني وقورٌ إذا خفَّتْ حلوم العشائرِ

وأني قتولٌ بالأناة إذا نبتْ صدور العوالي والسيوف البواترِ

وأني غفورٌ للسفيه وآخذُ النَّبيـ ـهِ ومنَّاع النزيـــل المجاورِ

إلى أن يقول في آخر القصيدة مخاطباً الوزير ، مستحضراً أناه بشكل صريح [٣٤]:

وما أنا للنعماء منك بجاحـــدٍ ولا لأياديـــك الجسام بكافـــرِ

وحاشاك يوماً أن تُرى غير مُنعم وحاشاي حيناً أن أرى غير شاكرِ

ولا يفوت الشاعر وهو يعيش حالة الانتعاش الأنوي أن يُعرّض بحال الجُهّال من حوله ممن حسدوه وبخسوا حقّه ، مؤكداً خسارة قومه لشخص مثله:

يبكي العراق الدَّم من فُرقتي وليس لي من غمركم بِشرُ[٣٥]

ولذا كان يرى أنَّ وجوده في العراق فضيلة نُشرت في زورائه ما بعدها فضيلة ، أنَّه رجل قلّ أن يتكرر[٣٦]:

وقد علم الأقوام أني مدرك مساعي قومي غير وانٍ [٣٧] مُعّرد

نعشتُ بزوراء العراق فضيلةً سرى ذكرها ما بين غور وأنجدُ

سفيتُ بها في وجه كل مجوّد من الأول الماضين هَبْوة رِمْددِ

وزدتُ على ما أدركوه فصاحةً وان يزد الرحمانُ في العمرِ ازددِ

ويبدو من أبيات الشاعر أنَّ أهل بغداد لم ينصفوه حق الإنصاف ، بل ظلموه وجهلوا قدره فانبرت أناه المعاتبة توجه خطابها الحزين لقومه مذكراً اياهم بجملة من الفضائل التي ميزته عن غيره[٣٨] :

ما أنْصَفَتْ بغدادُ ناشئها الذي كَثُرَ الثَّناءُ به على بغْـدادِ

سَلْ بي إذا مَدَّ الجِدالُ رواقَهُ بصَوارمٍ غيرِ السُّيوفِ حِدادِ

وجرتْ بأنواعِ العُلومِ مَقالَتي كالسَّيْلِ مَدَّ إلى قَرارِ الوادي

وذعرْتُ ألْبابَ الخصوم بخاطرٍ يقْظانَ في الإصْدارِ والإيـــرادِ

فعلى الرغم مما تحلى به الشاعر من صفات إلا أنَّ بغداد (مدينة الشاعر) قد فرطّت فيه مما أوجع قلبه فجرى على لسانه العتاب مُزداناً بتعظيم أناه الشعرية التي سجلت حضورها الفاعل في النص . ونلحظ مثل هذا الجو الحزين للمعنى في قوله[٣٩] :

اِني وبغداد كالمظلومِ من قَمَرٍ حُسْنٌ وليس وراء الحسنِ اِحسانُ

أُغْني بمدحي ولا أُغْنى بمكرمةٍ كمخيط السلك يكسو وهو عُريانُ

إنَّ تجاهل قومه لم يثنِ من عزيمته او يثبط منها انما كان مدعاة لتعظيم أناه وهو يصور نفسه المقدّم بينهم وفضله لا يحدّه حدّ بل تجاوز حدود إدراك البشر وعقولهم الى حيث تحلق الطير و تنتهي الريح في مسارب الكون :

سرى ذكر فضلي حيث لا الريح تهتدي طريقاً ولا الطيرُ المُحلقُ واقعُ [٤٠]

فأهل العراق و رواته كانوا من الشاهدين على فضله والمقرّين به، وكفّاه بذلك فخراً [٤١] :

شهدَ العراقُ وكلُّ راوٍ بـــارعٍ فيه بفضلِ مدائحي وولائي

وَرَووا فكم من مُنجدٍ ومُغوّرٍ[٤٢] يتْلو مديحي فيكُم وثنائـــي

لذا فإنَّ شاعرنا الأمير شهاب الدين حين يرحل فأنَّ أناه الراحلة المغتربة غير آسفة ولا مكترثة ، فهو كالجبل الأشم لا يهزه جهل الأخرين به أو تفريطهم فيه ، داعياً مبغضيه إلى ترك النيل منه وإلقاء التُهم عليه كاتهامه بالسباب ، فما ذاك من عادات الشاعر ولا من أخلاقه [٤٣]:

رحلتُ عنكم فلا جيدٌ بملْتفتٍ إلى الديـــــار ولا شوقٌ بمُعْتادِ

ولا تَسنُوا لأقوالي سِبابكمُ فما العَضيهةُ من شأني ولا عادي

وفيما تقدم من تفاخر الشاعر بنفسه ظهرت أناه صادحة بحب النفس وإثبات أفضليتها على الغير ، من دون رفض المجموع على الرغم من انكارهم لفضله بل على العكس سنلحظ كيف أنَّ حب المجموع والتفاخر بهم واحدٌ من أوليات حيص بيص الشعرية ، فالأنا الفردية تسير جنباً إلى جنب والأنا الجمعية من دون تقاطع لتلتقيا عند نقطة واحدة هي أصالة النسب وكرم الأخلاق .

المطلب الثالث : تفاخر الشاعر بقومه (الأنا الجمعية)

إلى جانب حضور الأنا الفردية والإشهار بالتفاخر بها، نجد في المقابل استحضاراً للأنا الجمعية في قصائد الشاعر موظفاً ضمير الجماعة (نحن) وضمير المتكلمين (نا)، ومن ذلك قوله[٤٤] :

نحنُ قومٌ من بني مُضرٍ جَدُّنا في الفخر عَدنانُ

خُشُنٌ والضَّيمُ مُعْتَرَضٌ ذُلُـلٌ والنَّاسُ إخـــوانُ

نارُنا فوقَ الجبالِ بها يهتدي سَفْرٌ ورُكبـــانُ

وقال أيضاً مفتخراً بقومه معدداً لمحامِدهم[٤٥] :

مُلوكٌ إذا عُدَّ الفخارُ تَسانـــدوا إلى حسبٍ بالمكرمـــاتِ مُوَطَّـــدِ

غنيونَ بالبأس الجريء عن القَنا وبالحمد عن نُعْمى لُجينٍ وعسجدِ

إذا أخمدَ النيرانَ قُـرٌ مـــــرُاوحٌ بأهداب رجَّـــاف العشيَّة مُـــرْعدِ

ولم يُطق العجلان في قبس ضرمةٍ حفاظاً لما يعـروه من رعشةِ اليـدِ

ولاذت بفرث المُوديات مع الـــدجى من القُـــرِّ رُعيْانُ الغريب المُـــردِدِ

رأيتَ ضيوف الدارميينَ هُجَّعـــــاً لدى خير مثوىً من رجالٍ وموقـــدِ[٤٦]

تأتي هذه الأبيات بعد بيتين_ ذُكرت في اول البحث _ افتخر فيها الشاعر بنسبه المنتهي إلى أكثم بن صيفي مكملاً سلسة افتخاره بقومه متباهياً بأخلاقهم التي فاقت الحدّ ، إذ جمعوا بين الشجاعة والكرم سيّما وقت البرد المصحوب بالرياح الذي تتبعه سحاب مرعدة حيث تُطفأ نيران الكرم كان قوم حيص بيص هم من يتصدر مشهد الكرم وإطعام الضيف ، والكرم يمثل الصفة الأساسية التي ينماز بها العربي الأصيل، وفي البيت الأخير إشارة إلى (دارم) وهم من بطن تميم التي أكثر الشاعر من ذكر مفاخرها .

ونقرأ ايضاً في قصيدة اخرى في معرض الفخر بالجماعة قوله[٤٧] :

أنَّ أولى التيجانِ من خنْدفٍ قومي إذا ما ذكرَ الفخر

تهفو لنا الراياتُ خَفَّاقةً إذا دعا نجدتنا الذُّعرُ

و(خندف)هي القبائل المنحدرة من الياس من مضر بن نزار انتهاء إلى تميم ، والشاعر يدرك قيمة الانتماء للمجموع في مجتمع –على الرغم من اسلامه –الا ان بعض القيم القَبَلية لا زالت متأصلة فيه حيث يكون البقاء للقويّ المتفوق عدداً و مالاً ، كما انه وعى اهمية دوره في تقوية ذلك المجموع

الذي هو جزء منه ، فبذل قوته في الدفاع عن ذلك الكيان ليبرز فارساً شجاعاً ،كما بذل اشعاره فمدح قومه ومجّد بهم سارداً لخصالهم كلما سنحت له الفرصة[٤٨] :

نمتني ملوكٌ من تميم بن خنْدفٍ كرامٌ إذا ما الغيث أمسكَ وابله

غطاريـــف أقيـالٌ كأنَّ أكفَّهمْ سحاب شتاءٍ أغفلته شمائـلـه

إذا ما احتبوا يوم الخصام حسبتهم هضاب شروى راسياتٍ كلاكله

وإن سحبوا خرصانهم لكريهةٍ تباشر طُيَّارُ المَلا وعواســله

لهم كلُّ حمراءٍ على مُشْمَخِرةٍ يشيمُ سناها ابن السبيل وعادله

لبوسهُم في السَّلم ريْطٌ معسجد وفي الحرب زغْفٌ سابغات ذلاذله

كانَّ رباطَ الخيل حول بُيوتِهم مُعرَّسُ حيٍّ قد أماطت عقائــلهْ

والقصيدة طويلة اجتزأنا مقطعاً منها حيث تتسامى الأنا الشعرية فيها محلّقة في فضاء الفخر الواسع ، فصفات قومه من أشرف الصفات وأخلاقهم أرفع الأخلاق أنَّهم كرام وقت الضيق ، فرسان وقت المعمعة ،نارهم الحمراء موقدة للسائرين يبصرها التائه وابن السبيل ، وزاد على ذلك أنَّهم أطهار ساعة العبادة لبسهم فيها الرقيق ، وفي الحرب لبوسهم الدرع الواسعة ، ومنازلهم هي راحة كل متعب ،وهذه من المعاني اللطيفة التي اسبغها الشاعر على النص، ولا ينفك الشاعر ينتقي لقومه من الصفات أشرفها ومن المكارم أعفّها ، ومن هنا حقّ له التفاخر بهم .

وهكذا وننحن نتصفح ديوان الشاعر ونتأمل أشعاره نجد كثيراً من قصائده مما ثبت في ديوانه لا تخلو من ذكر الأنا وكأن القصيدة الشعرية التي ينظمها حيص بيص أشبه بفضاء شعري يُعاد فيه إنتاج أناه الشعرية وسيرة قومه فضلاً عن سيرته التي هي جزء منها[٤٩] .

وحيص بيص في ذلك يشبه إلى حد كبير (المتنبي) شاعر العرب حتى أنَّ هناك من وصفه بالمتنبي الثاني [٥٠] ومثلما كان المتنبي متعالياً بأناه مُشيداً بنفسه مترفعاً بها كان شاعرنا كذلك ،فهو متأثر به ايما تأثر إلا اننا نجد فارقاً بين الاثنين وهو أنَّ المتنبي _على رأي بعض الباحثين [٥١]_ كان في استعماله للضمير (أنا) يقصد تحدي (المجموع) الذي ظلمه ، فسعى إلى محاولة طمس معالم هذا المجموع بدليل اختفاء (نحن) من لغته الشعرية ، في حين نجد حيص بيص في أكثر من الفخر بقومه ، والتمجيد بهم ، مشيراً إلى جمال أخلاقهم التي اتصفوا بها ، ولذا كان الأنا الجمعي حاضراً إلى جانب الأنا الفردي من دون أن يطغى الثاني على الأول بل كان الأنا الجمعي يزيد من عمق الأنا الفردي عند شاعرنا، فمتى ما كان قومه أوائل الناس كان هو الأوحد في زمانه والمتفرد في شخصه.

خاتمة البحث :

نخلص ممَّا تقدم من دراسة لأشعار حيص بيص إلى ما يأتي :

١ _تتسامى الأنا الشعرية عند حيص بيص الشاعر العباسي إلى حدٍ كبيرٍ جليةً بارزةً للقارئ ، وقد تمظهر التسامي الأنوي عنده في التباهي بمكارمه والتفاخر بنسبه المنتهي إلى أكثم بن صيفي حكيم العرب .

٢ _كما ورد بكثرة التفاخر بقومه الذين سادوا على غيرهم من بني جنسهم بما اتصفوا به من الأخلاق الفاضلة سيما الشجاعة والكرم فهم كرام وقت الضيق ، فرسان ساعة المعركة ، أطهار حين العبادة .

٣ _ لعل أبرز صور التسامي الأنوي تجسدت عنده في التفاخر بنفسه وهو يرى في نفسه شخصاً قلّ نظيره ، رجلاً مترفعاً عن صغار الرذائل فضلاً عن كبارها ، ساعياً نحو الفضائل التي تبقيه مخلداً على مرّ الدهر ؛ لذا امتلأت قصائده بالترفع السامي والتنزه الفريد عن كل ما شأنه أن يحطّ من مقامه مثل ترفعه عن الهجاء والسب وشتم الخصوم وفضح الأعراض ، في مقابل ذلك تفاخر

بنفسه رجلاً كتوماً صبوراً حكيماً متواضعاً ، وكان أبرز صفاته التي تغنى بها هي الصدح بامتلاكه اداتي: قوة القول وبراعة النظم ، وقوة السيف وشجاعة النفس.

هوامش البحث :

١-ينظر: الفراهيدي ، كتاب العين ،٣٩٩/٨ ، وينظر ايضاً :ابن منظور، لسان العرب، مادة (أنا) :١٣/ ٣٧ .

٢ – ينظر: مجدي وهبه ،معجم مصطلحات الادب: ١٢٧

٣. ينظر: جميل صَليبا، المعجم الفلسفي، جميل:١٣٩

٤– ينظر: مجموعة مؤلفين ،مراجع الشخصية :١٢ ،وينظر: فرويد، الأنا والهو: ١٤ وما بعدها ، وينظر: الهو والأنا والأنا العليا (مقال الكتروني)

٥ –ينظر: محمد السيد عبد الرحمن، نظريات الشخصية: ٢٧٦

٦ – ينظر في ترجمة الشاعر حيص بيص: ابن خلكان ،وفيات الأعيان :٢/ ٣٦٢ –٣٦٥ ، ابن كُثير، البداية والنهاية : ٣٠١/١٢–٣٠٢ ، اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان :٣/ ٣٠٢–٣٠٣

٧ – ينظر: الفراهيدي ،كتاب العين :٣١٨/٧ ، وينظر ايضا: ابن منظور، لسان العرب، (مادة سما) :٣٩٧/١٤

٨ – ينظر :فتحي عبد الرحمن الضبع، الذكاء الروحي: ١٤٩

٩ – الديوان: ١٧٩/١

١٠ –ينظر : محمد احمد جاد المولى وغيره ،أيام العرب في الجاهلية: ١٢٤ وما بعدها

١١– الديوان :١/ ٢٩١

١٢– الديوان : ١/ ٣٦٨

١٣– الديوان :١/ ٢٤٠

١٤– الديوان : ١/ ١٢٧

١٥– الديوان : ١/ ٢٥٥

١٦– الديوان: ١/ ٢١٨

١٧– الديوان : ٢/ ٣١٠

١٨- الديوان : ١/ ٢١٧

١٩- الديوان : ١/ ٢٩١

٢٠- الديوان : ٢/ ٢٥٦

٢١- الديوان : ٣/ ١٩١

٢٢- الديوان : ٢/ ٢٣٧

٢٣- الديوان : ٣/ ٤١٤

٢٤- الديوان : ٢/ ٣٢٣

٢٥- الديوان : ٣/ ٧٧

٢٦- الديوان : ١٥/٢

٢٧- الديوان : ٢/ ٢٨١

٢٨ - الديوان : ٢/ ٣٢٣

٢٩ - الديوان : ٢/ ٣٢٧

٣٠ - الديوان : ٨٠/٣

٣١ - الديوان : ٢٨٢/٢

٣٢- ينظر: ابن منظور ، لسان العرب : ١١/ ٥٧٦ (مادة قال) ، ويجمع قِيل على أقوال وأقيال

٣٣- الديوان : ١/ ١٠١

٣٤- الديوان : ١/ ١٠٦

٣٥- الديوان : ١/ ٢٠٠ ومعنى الغمر الوارد في البيت : الماء الكثير ، يقال غمر من الناس اي جماعتهم .

٣٦- الديوان : ١/ ١٨٠

٣٧- معاني الغامض من الكلمات الواردة : غير وانٍ: غير مردد ،معرّد: محجم ، نعشتُ: رُفعتُ ، رمددِ: كثير ودقيق ، هبوة :غبرة .

٣٨- الديوان : ٣/ ٤٠٥-٤٠٦

٣٩- الديوان : ٢/ ٣٥٠

٤٠- الديوان : ٤٠٩/٣ ، وينظر تكرار البيت في مواضع اخرى من الديوان مع اختلاف بسيط والمعنى واحد : ١/ ٢٧٢ ، ٢٩٢/١ .

٤١- الديوان : ٢/ ٧٩

٤٢- معاني الغامض من الكلمات الواردة : منجد: من قصد نجد ، المغمور: من قصد الغور ويريد الشاعر هنا تُهامة

٤٣- الديوان : ١/ ١١ ، ويريد الشاعر بالعضيهة : الإفك والبهتان ، عادي : من عاداتي

٤٤- الديوان : ١/ ٢٠٧-٢٠٨

٤٥- الديوان : ١٧٩/١

٤٦- معاني الغامض من الكلمات الواردة : قرٌّ مراوح: برد مصحوب بالرياح، قبس ضرمة :نور عود في طرفه نار ، فَرث: بعر الإبل إذ يستوقده العرب، المُوديات : الإبل ، الغريب يراد بها الأبل أيضاً.

٤٧- الديوان : ١/ ٢٠٠

٤٨- الديوان : ١/ ٢٠٢-٢٠٣

٤٩- ينظر :عزّ الدين اسماعيل، كل الطرق تؤدي الى الشعر: ٦٩

٥٠- ينظر : محمد طاهر الصفار ،أبو الفوارس المتنبي الثاني(مقال الكتروني)

٥١-ينظر: هادي خفاجي ،الأنا والنحن: ٥٦

المصادر والمراجع :

١_ ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت٦٨١هـ) ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : ، تحقيق : إحسان عباس ، مجلد٢ ، دار صادر ، بيروت .

٢ _ ابن كُثير، ابو الفداء اسماعيل بن عمر ،البداية والنهاية : (ت٧٧٤هـ) ، دار الفكر ، ١٤٠٧هـ_١٩٨٦م .

٣- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين (ت٧١١هـ) ، لسان العرب ،ط٣، دار صادر _ بيروت ، ١٤١٤ ، مذيل بحواشي اليازجي وجماعة من اللغويين.

٤- اسماعيل ، عزّ الدين ،كل الطرق تؤدي إلى الشعر ، ط١، الدار العربية للموسوعات ، لبنان ، ٢٠٠٦م.

٥- جاد المولى وغيره ،محمد أحمد ، أيام العرب في الجاهلية ، ط١، دار احياء الكتب العربية ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، ١٣٦١ هـ ، ١٩٤٢ م .

٦- حيص بيص ، سعد بن محمد بن سعد بن الصيفي، ديوان الأمير شهاب الدين أبي الفوارس (٤٩٢_٥٧٤هـ) ، تحقيق وشرح : مكي السيد جاسم ، وشاكر هادي شكر، ط١ ، منشورات وزارة الاعلام / العراق ، ١٩٧٥ م.

٧ _ صَليبا ، جميل ،المعجم الفلسفي، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ،١٩٨٢م .

٨_ عبد الرحمن ، محمد السيد ،نظريات الشخصية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، عبده غريب (شركة مساهمة مصرية) ، ١٩٩٨م .

٩ _ الفراهيدي ، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم ت (١٧٠هـ)، كتاب العين ،تحقيق : مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي ، دار ومكتبة الهلال .

١٠- فرويد، سيجمند، الأنا والهو، ترجمة : محمد عثمان بخاتي : ط٤ ، مطابع دار الشروق ، بيروت والقاهرة ، ١٩٨٢م .

١١ _ مجموعة مؤلفين ،مراجع الشخصية (الهو والأنا والأنا العليا) ، دراسة في التحليل النفسي ، ترجمة : وجيه أسعد ، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية ، دمشق ، ٢٠٠٢م .

١٢ _ وهبه ، مجدي ،معجم مصطلحات الأدب ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٤م .

١٣_ اليافعي ، أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان (ت٧٦٨هـ) ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان ، ط١ ، منشورات محمد علي بيضون ، بيروت _ لبنان ، ١٤١٧هـ_١٩٩٧م .

الدوريات :

١ _خفاجي ، هادي ،الأنا والنحن، مجلة الكتاب ، العدد ٢ ، ١٩٧٢م .

٢ _ الضبع ، فتحي عبد الرحمن ،الذكاء الروحي وعلاقته بالسعادة النفسية لدى عينه من المراهقين والراشدين، مجلة دراسات عربية في التربية وعلم النفس (ASEP) ، العدد ٢٩ ، الجزء الأول ، سبتمبر ، ٢٠١٢م .

المقالات والمواقع الإلكترونية :

١ _ محمد طاهر الصفار أبو الفوارس المتنبي الثاني ، شبكة النبأ المعلوماتية : https://m.annabaa.org

٢ _الهو والأنا والأنا العليا : https://ar.m.wikipedia.org